دورة الأنثى
وأحوالها بين الوحي والإنسان

عبدالله بن فهد الخليفي

2

● مصطلحات مهمة

أيديولوجيا الضحية، المظلومية، عقدة التسلط، التمييز الإيجابي، الفردوس الأرضي...

كل واحد منا في بداية التزامه أو في بداية طلبه للعلم، كان يجد نصوصًا شرعية معينة يفرح بها ويستحسنها جداً، ويجد نصوصًا أخرى يستشكلها،

ويجد في قلبه غصة تجاهها، هذا بديهي..!

هذه النصوص التي تجد في قلبك غصة تجاهها وتريد حلاً لإشكالاتك تجاهها تصدم إذا لم تجد أحداً في الأمة من قبل استشكلها، تجدهم قبل مئات السنين يتناولون هذه النصوص ويتداولونها بأريحية ولا تجد عندهم ذرة إشكال!، بل وتتفاجأ حين تقرأ في الجدل الديني القديم أن اليهود والنصارى والملاحدة وغيرهم لم ينتقدوها على أهل الإسلام! لم يقولوا أنتم عندكم كذا وكذا من الأمور التي نرى اليوم كثيراً من المسلمين ربما يقف عندها ويستشكلها ويريد حلاً وجوابًا عليها..

هنا يوجد احتمالية أنك متأثر بفلسفة حديثة، بفكرة جديدة، لكن هذه الفكرة لم تأتك على أنها فكرة وإنما جاءتك عن طريق أعمال درامية، كوميدية، عن طريق أغنية، قصيدة، كلمات كنت تسمعها من والدك، إلخ...

فتكونت عندك هذه الفكرة وصرت تراها مُسلَّماً بها! وفي الواقع أنها فكرة مُشكلة، وهذه الفكرة إذا تدبرت فيها وتأملتها ستجد لها معالجة في الوحي، ولكن أولاً يجب ألا نستكبر أن نعترف أننا متأثرون بمحيطنا..فالعالم اليوم عالم مفتوح على بعضه وأكثر ما تأتينا الأفكار على هيئة مسلمات، هناك طريقة في العرض النفسي موجودة في نشرات الأخبار، في التحليل السياسي، في التحليل الرياضي، في الأفلام، في المسلسلات، في القصائد، في البرامج، في كل شيء؛ والواقع أن بعضهم يتحدث عن فكرة وعقيدة تحتاج لإثبات، فما الذي يفعله؟ بدلاً من أن يثبتها هو يتحاكم إليها؛ فيحصل عنده نوع توهم إن كان عنده ضعف في التحليل. يتوهم أن الفكرة من شدة قوتها فهي ليست محلاً للنقاش، فيحاول أن يتماهى مع الإنسان الذي أمامه ويقنعه أن مثلاً " ديني لا يخالف هذه الفكرة وأنا لم أخالفها "

يقول الله عز وجل: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾

مصطلحات مهمة...
أيديولوجيا الضحية،
المظلومية وعقدة التسلط

أيديولوجيا الضحية هي فكرة تجعل جنساً من الناس أو فئة من الناس مظلومين مطلقاً؛ وبناءً عليه تسقط عنهم التبعات الأخلاقية بسبب هذا الظلم الحاصل لهم.

السلطة إذا أرادت أن تظلم مع إسقاط التبعات الأخلاقية عن نفسها ماذا تفعل؟

تدعي أنها الأعلم بمصلحة الرعية وأن الرعية لا يقدرونها؛ وهذا ما نسميه بـ [عقدة التسلط]، عامة الديكتاتوريين في الدنيا يفلسفون ما يصنعونه أخلاقياً بأنه حفاظ على الأمن أو سلامة من الفوضى، يفلسفونها فلسفة أخلاقية، وهذه الفلسفة قد يكون فيها شيء من الصحة في بعض الأحيان، لكنهم يبالغون ويضاعفون الأمر حتى يقعوا في الظلم.

أما الرعية الدون قد يبررون تقصيرهم في حق الطرف الأعلى والذي عليه مسؤوليات أعلى بأنهم مظلومون وأن الطرف الأعلى هو الذي عليه المسئولية؛

لهذا جاءت السنة بمعالجة هذا الأمر في قوله ﷺ : " كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته "

تاريخياً، كثير من الناس يضربون لهذا مثلاً بالثورة الفرنسية، فقد كانت هناك فئة مظلومة قامت بثورة ثم فجأة تحولت إلى فئة ظالمة، وهذا موجود في تاريخنا أيضاً، فعلى سبيل المثال، لما كان الأمويون يحكمون كان العباسيون يدّعون مظلومية أهل البيت، ثم لما قاموا بثورة ارتكبوا مجازر وظلم ما كان يتخيله أحد وبدم بارد! لماذا ؟ ؛ لأنهم عاشوا حالة المظلومية وأسقطوا عن أنفسهم التبعات الأخلاقية تماماً في محاربة هذا الظلم الذي تعرضوا له..!

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً ﴾

يعني الإنسان الذي قتل له ولي مظلوم ولكن لا يسرف في القتل أي لا يتحول من مظلوم إلى ظالم. المظلومية ليست شيكاً مفتوحاً، إذا سبَّك إنسان فيجوز أن ترد عليه أو تعفو عنه وهذا الأفضل، لكن إذا رددت عليه لا تتجاوز بشكل أكبر؛

وأحياناً تكون هذه المظلومية مجرد كذبة وإدعاء؛ فالشيطان لعب دور الضحية ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بما أغويتني! يعني وضع ذنبه على من؟ على رب العالمين والعياذ بالله.

التمييز الإيجابي..

كثير من الناس يظنون أن مشكلتنا في ملف المرأة هي المساواة، وفي الواقع فكرة المساواة هي أكثر فكرة غير مطروحة؛ لأن أيدولوجيا الضحية هي وسيلة للحديث عن أختها [التمييز الإيجابي]..

كثيرًا ما يحدث في الخطاب الوعظي عندنا أنهم يكلمون الفتيات ويقولون لهن:" انتبهن من الذئاب البشرية (الذكور)! " ويكأنهن غير مشتركات في الإثم. وأنا لما تأتيني فتاة واقعة في علاقة محرمة لتستشير أنبهها على أن هذا ذنب مشترك وألا تحاول أن تظهر نفسها بريئة، الإنسان لا بد أن يتحمل ذنبه لكي يعرف كيف يتوب. نعم الرجال أنفسهم مفطورون على التعاطف الشديد مع النساء ولكن الأمر يحتاج ضبطًا، امرأة العزيز ظلمت يوسف!.. النبي ﷺ لما حذر النساء من كلمة "ما رأيت منك خيراً قط" حذر من هذا المعنى.

النبي ﷺ الذي قال:"غارت أمكم" هو نفسه من قال ووعظ في مكان آخر " أظننت أن يحيف عليك الله ورسوله؟! "،
ولما أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أكثرن عليه في النفقات هجرهن شهراً كاملاً!

إذًا مصطلح التمييز الإيجابي هو نتيجة لأيديولوجيا الضحية؛ فبما أن جنس النساء هو جنس مظلوم دائماً والرجال تاريخياً يظلمون النساء، إذن فالجنس المظلوم يجب أن يُعوَّض!

مثل قصة [الكوتا] في الانتخابات، مثلاً لو أرادوا إدخال النساء في الحياة البرلمانية يدخلونهن مباشرةً دون انتخابات ويقولون "أن الشعب لا يملك الوعي الكافي لينتخب امرأة !"

حتى في أي مهرجان جوائز في الدنيا سواءً علمية أو غيرها إذا لم يعطوا جوائز للنساء تتهم اللجنة بالانحياز، فصاروا يقبلون من النساء ما لايقبلونه من الرجال ليخرجوا من هذا الاتهام..

الغُنم بالغُرم..

قاعدة مهمة جداً من يفهمها يرتاح في كثيرٍ من الأمور

لماذا قال النبي ﷺ :"أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك"

??? هل هذا تمييز إيجابي؟

✓ لا، هذا غُنمٌ بِغُرم..!

فلما كانت الأم هي تحمل وترضع وهي ألصق بالابن وهذه العاطفة التي عندها خصوصاً في السنوات الأولى، جعل لها حقًا أكبر من الأب، لهذا هي جُعل لها حق الحضانة مالم تتزوج، فجعل لها حق أكبر؛ غنمٌ بغُرم..

وهذه مسألة هامة أن الشريعة فيها توازن، دائماً إذا أخذت أعطت، فيها موازنة كبيرة جداً؛ لهذا الرجل لما جعل عليه المهر، جعل عليه الجهاد، جعل عليه النفقات وغيره، جُعلت له مجموعة من الحقوق في مقابل هذا. المسألة يسيرة جداً.

الفردوس الأرضي..!

الفكرة الرابعة وهي مُتمّمة لما طرحناه سابقًا وهي فكرة [الفردوس الأرضي] وهي في الأصل تصور أن الدنيا يمكن أن تكون جنة فيها غُنمٌ دون غُرم ولا يوجد فيها ظلم نهائياً.
وهذا خلل عولج في القرآن بقوة، أن هذه الدنيا دار اختبار أصلاً وليست دار قرار، ولا بد أن يوجد فيها مجال للشر والخير، فمع الذنب توجد المغفرة والتوبة، ومع التخاصم يوجد تصالح، ومع الفقير يوجد الغني لتوجد الصدقة والمواساة.
وأصلاً لو فتحت علينا الدنيا وفتحنا الفتوح وتغلبنا على الكفار فهذه أصلاً فتنة اسمها فتنة السراء، قال تعالى:

﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾

موظفة ناجحة أم أُم مربية

هناك سيدة أمريكية تُدعى Anne Marie Slaughter تعمل كأستاذة قانون دولي في جامعة Harvard، وتولت منصب عميد كلية Woodrow Wilson للعلاقات الدولية والسياسات العامة، وتم ترشيحها لمنصب نائب وزير الخارجية حينذاك هيلاري كلينتون، وهو منصب يحلم به أي مشتغل بالعلوم السياسية في أمريكا. هذه السيدة تحكي أنها في عام 2012 وجدت عملها في الأكاديمية وفي الخارجية الأمريكية يسحبها من عائلتها ويحرمها من الارتباط بأبنائها [تذكروا معنى الغُنم بالغُرم] فظل يتردد في بالها سؤال مؤرق :

" في نهاية حياتي إذا نظرت إلى شريط حياتي، أيهما سأفضل: أن أكون نائبًا لوزير الخارجية، أم كأم صالحة تقوم برعاية أولادها "

هذا السؤال دفعها في النهاية إلى اتخاذ قرار حاسم وجذري، ففي عزة تفوقها ونبوغها وفي ذروة نجاحها المهني قررت أن تترك كل هذا وترميه وراء ظهرها وتركت العمل وتفرغت لأولادها..

في وقت ما كانت هي تسخر من الأمهات الجالسات في بيوتهن، ولكن بعدما رأت نفسها منهمكة في العمل وبعيدة عن أسرتها صارت تشجع الأمهات على التفرغ لأولادهن وبيوتهن، وقالت أنه كلما زاد ابتعادها عن أسرتها كلما سُحقت قناعاتها النسوية تحت أقدامها.. وكتبت Anne فيما بعد مقالًا طويلًا في مجلة The Atlantic بعنوان: (لماذا لا يمكن للنساء أن يحصلن على كل شيء؟ Why Women Still Can't Have It All) لتوضيح موقفها وقصتها.

وعنوان مقالها هذا يعالج أصل الإشكال عند المرأة العصرية التي تأثرت بالانحرافات الفكرية وأنها تريد الغنم دون الغرم وسيطرت فكرة الفردوس الأرضي مع عقدة المظلومية.

حق الله وحق المخلوق

كثير من الناس يظنون أن الله عز وجل لا حق له علينا، وإنما رب العالمين والدين وكل هذا متمحور حول الإنسان، وهذا غير صحيح! النبي ﷺ قال للمرأة التي سألته أتحج عن أمها وقال:"أرأيت إن كان على أمك دين أكنت تقضينه؟" قالت بلى، قال:"فدَين الله أحق أن يُقضى." والله عز وجل قال: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ، يقول عبد الله بن مسعود:"لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً"

هذا تعظيماً لحق الله..!

الله عز وجل له حق ولكن حقه سبحانه ليس عن احتياج بل هذا من كماله سبحانه، فالذي لا حق له هو المعدوم!.

فعند الحديث عن أسماء الله الحسنى، نقول الغفور؛ فهو غفور في حقه، حليم؛ حليمٌ في حقه، رؤوف؛ رؤوفٌ في حقه.
فهي ليست حقوق بشر فقط.

فالكثير ينظرون أن المسألة مسألة ذكر وأنثى فقط وينسون حق الله عليهم، وحق الله علينا أعظم من أي شيء في الدنيا فلا يستخفنك إنسان ويقول لك غير هذا، قل له هذا حق الله وسنحاسب عليه في الآخرة، وفي الدنيا لن نأخذ كل شيء بل هناك أشياء سنبذلها لله تعالى، وهذه خلاصة قصة أمر الله لإبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ما المراد إيصاله هنا، لم أمره الله بهذا؟ لأن حق الله أعظم من حق الابن على والده، فما بالك والأمر من وراءه منفعة لنا!

نظرية الصفة الأخص..

كل إنسان عنده مجموعة من الصفات لا يوجد إنسان مجرد من الصفات، فعنده جنس عنده قبيلة عنده دين،عنده هوايات، إلخ... ويتجانس مع مجموعة من الناس، ويوالي ويعادي الناس بناءً على هذا الأصل، لكن دائماً تكون عنده صفة هي أخص صفاته. الصفة الأخص؛ هي صفتك التي تجعلك تقدم الولاء والبراء، إذا تعارضت مع الأمور الأخرى تقدمها على هذه الأمور؛ لأنها صفتك الأخص، فإن كانت صفتي الأخص هي الدين فإذا تعارض شيء مع ديني أقدم ديني عليه كما حارب الصحابة آبائهم وعشيرتهم لأجل الدين وهكذا.

اليوم من الأمور المشاهدة عند الكثير من بناتنا؛ أن الأنوثة صارت عندهن هي الصفة الأخص، أخص من كونها مسلمة! فمثلاً لو تقول لها هيلاري كلينتون ولا الشيوخ (الرجال) تقول هيلاري كلينتون! فقط لأنها امرأة مثلها فهي تواليها وإن كانت تختلف عنها في الدين.

الجاحظ ذكر في مجموعة من كتبه أن الشعوبية كانت سبب الإلحاد والكفر في وقته. الشعوبية هذه فئة تنكر فضل العرب على من غيرهم من الأعراق، ومنهم من تطور وصار يجمع مثالب العرب، ومنهم من وصلت به الخصومة إلى أن كفر بغضاً للعرب! فهو لما رأى أن صفته الأخص هي أنه فارسي أنه بربري أنه رومي قدمها على ما سواه ولو كان دينه.

إذًا لماذا يجب أن يكون الدين هو صفتك الأخص؟

لأن الدين هو الذي تنبني عليه إجابتك على الأسئلة الوجودية التي تنبني عليها حياتك، لماذا نحن هنا؟ وإلى أين نذهب؟ وما الهدف من هذه الحياة؟ وهذا ينبني عليه مصيرك في الآخرة التي هي إما خلود في جنة أو خلود في نار والعياذ بالله.

التجريديةُ الأرسطية..

المنطق الأرسطي -نسبةً لأرسطو- كان له أثر على عقول البشر ككل. هؤلاء -الأرسطيون- كان لهم عقيدة في الإله بنوا عليه كل أفكارهم، يعتقدون أنه إله مجرد من الصفات؛ لا يسمع، لا يبصر... لا شيء!

فمن يتأثر بهذا الفكر تصبح عنده إشكالية تجريد، فلا ينظر للأمور في سياقها إنما ينظر إليها مجردة.

عقلية المظلومية مع عقلية الصفة الأخص يكون فيها درجة عالية من التجريدية أثناء الحوار، فيأتي أحدهم ويقول "ضرب المرأة" بدلاً من أن يقول "ضرب المرأة الناشز" ويساوي بينهما كأنه لا فرق بينهما. حتى بعض المتأثرين بأيدولوجيا الضحية يقولون "رجم الزانية" هكذا بالتأنيث مع أن الزاني المحصن يرجم ذكرًا كان أم أنثى!،
مثلاً إذا سمعت أن رجلاً ضرب شخصاً كبيراً في السن، ستقول كيف هذا وتتضايق، ولكن إن علمت أن هذا العجوز ضربه وسبه وقذف أمه وأباه؟ سيختلف موقفك! وهذا ما لا يريده أصحاب التجريدية الأرسطية وأيدولوجيا الضحية..

كسر الأدوار الجندرية..

ما معنى كسر الأدوار الجندرية ؟

يعني أنه لا توجد فطرة أنثوية وفطرة ذكورية نهائياً وأن هذه مجرد قوالب صنعها المجتمع! إذًا لا فرق إن وضعنا المرأة في دور الرجل أو الرجل في دور المرأة.

هذه نظرية ليبرالية موجودة، يقولون لكي تقنعوا المجتمع بهذا ضعوا النساء في الأماكن التي تعودوا أن يروا فيها الرجال، وضعوا الرجال في الأماكن التي تعودوا أن يروا فيها النساء.وطبعاً هذه فكرة خبيثة فالنبي ﷺ لعن المتشبهات من النساء بالرجال ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء. معناه في فطرة ذكورة وأنوثة.

ولهذا يُدعم الشذوذ اليوم

لأنه مؤكد لهذه النظرية..!